الفكر الاسلامي ولغة القرآن عنصر ثقافي تطعّم به اللغة القومية

بقلم الأستاذ مصطفى الزرقا

خبير الموسوعة الفقهية بالكويت
والاستاذ بكلية الشريعة (دمشق)

ان نواة الجواب على السؤال الاصلي نجدها في عبارة للمستشرق الفرنسي كود فروا دومومبين عن التلازم بين تقرب لغة اي شعب اسلامي من لغة القرآن وبين قوة اسلاميته ، حيث يقول دومومبين في الفصل الاول من كتابه «النظم الاسلامية» ما يلي:

« ونستطيع القول بشيء من المبالغة : ان نظم اي شعب اسلامي تكون اكثر اسلامية كلما اقتربت لغته من لغة القرآن . فباتخاذ هذا المبدأ نستطيع ان نضع في الصفوف الاولى من المسلمين اولئك الناطقين باللغة العربية ، وان كان منهم من تكلم العربية بعد الفتح الاسلامي ، كحالة سكان سوريا والعراق ومصر والمغرب » (1)

انني شخصيا من القائلين بصحة هذا المبدأ الذي قرره دومو مبين . وبالاستناد اليه اقول :

ان التلازم قائم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية .

اما مدى هذا التلازم فانني ارى ان هذا التلازم حده الادنى هو ان يتعلم المسلم غير العربي آيات من القرآن ، وبعض السور القصار مع فاتحة الكتاب لاداء صلواته المفروضة . وحده الاعلى ان يستعرب الشعب كله استعرابا تاما ، كشعوب شمال افريقيا والعراق بعد الفتح ، حيث اصبحوا شعوبا عربية لا يمكن التمييز فيهم بين العرب الاصليين الوافدين بعد الفتح وبين سكان البلاد الاصليين .

وبين هذين الحدين (الادنى والاعلى) لانتشار اللغة العربية مع انتشار الاسلام مراتب لا تحصى درجاتها في مقدار ما تأخذ الشعوب التي تدخل بالاسلام من اللغة العربية . وقد يتعلم الشخص المسلم قراءة القرءان كله بالنص العربي ، ويحفظ مقاطع كثيرة منه غيبا . وقد يتعلم العربية وقواعدها فيجيدها كتابة اكثر مما يجيدها قراءة وحديثا . وقد يتخصص بعلوم الشريعة والفقه فيجيد العربية كتابة ونطقا الى درجة الخطابة فيها كأبنائها الفصحاء حتى انه قد يصبح من كبار شعرائها . والامثلة على هذا في التاريخ الاسلامي كثيرة معروفة . ومن

(1) النظم الاسلامية للمستشرق دومو مبين ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشماع، طبعة دار النشر للجامعيين ـ مطبعة حداد في بيروت ـ ايلول 1961) .

الامثلة العصرية على هذه الاجادة كتابة وخطابة الاستاذ الجليل العلامة الهندى الشيخ ابو الحسن على الحسنى الندوى ، والشيخ حبيب الرحمن الاعظمى وكثيرون سواهما .

ومما تجب ملاحظته ان خطبة الجمعة وصلوات الجماعة فى البلاد الاسلامية غير العربية ذات اثر كبير فى فهم العامة كثيرا من الالفاظ العربية وائتلاف سمعهم لها بما يقرأ فيها من القرآن جهرا ، وبما يرد فى خطبة الجمعة من آيات قرآنية واحاديث نبوية ومواعظ عربية ولو امتزجت بشروح من خطيب الجمعة باللغة القومية المحلية .

وكذلك يقال فى دروس المساجد وقصصها الدينى لما تتضمنه من استشهادات بنصوص دينية .

الاسئلة الايضاحية :

1) نعم لولا الاسلام لما انتشرت العربية ، ذلك لان اللغة ايا كانت لا يمكن ان تنتشر الا باحد عوامل اربعة : **الفتح القومى ، والسهولة** (نطقا وقواعد) ، **والتجارة الخارجية ، والدين .**

ا ـ فالعرب قبل الاسلام لم يكن ليمكن ان يكونوا قوة فاتحة فى العالم تبسط سيادتها ولغتها كما هو معلوم من امرهم فى الجاهلية .

ب ـ واللغة العربية على سعتها ودقتها وخصائصها الفريدة ومزاياها الجمة ليست سهلة النطق ولا القواعد على غير اهلها ، كما هو معلوم ايضا .

ج ـ والعرب قبل الفتح الاسلامى لم يكونوا ذوى تجارة خارجية عالمية ، ولا يمكن ان يكونوا كذلك فى حياتهم القبلية المعروفة ، ولاسيما انهم ليسوا امة بحرية . فكانت تجارتهم موسمية محصورة فى داخل الجزيرة العربية نفسها بين شمالها وجنوبها ، وتجارتهم الخارجية رحلة سنوية الى الشام ذهابا وايابا فى فترة قصيرة ليس فيها اقامة تجارية ولا تعامل دائم . وما سوى ذلك ليس له شان يذكر .

د ـ فلم يبق الا العامل الرابع ، وهو الدين السمح الذى قاد الفتح ، وبسط سيادة الاسلام فى العالم بعد ان جعل من العرب البداة امة حضرية نظامية ذات رسالة عالمية، وذات قانون داخلى وقانون دولى .

واستتبع هذا ايضا انطلاق التجارة مع الفتح الاسلامى ، فتوافر العاملان : الدينى الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية لمعرفة اصول الدين العربية ، والعامل الاقتصادى الذى يدعو الى اخذ اللغة العربية ايضا لمصلحة الاكتساب ، لان هذه **اللغة عندئذ اصبحت الاداة الوحيدة للتفاهم فى التبادل التجارى** بين الاقوام المختلفة فى البلاد المفتوحة على الاقل (وما اوسع رقعتها فى الارض) لانها لغة الدين المشتركة التى تنتشر عمليا بدافع الدين وما استتبعه من فتح وسيادة وحكم ، ومن تعامل بين شعوب البلاد المفتوحة على اختلاف لغاتها حين اصبحت اقطارا متعددة فى دولة واحدة لغتها الرسمية المشتركة **هى العربية لغة الدين والقرآن والصلاة .**

2) اما الشق الثانى من السؤال الايضاحى (لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لما انتشر الاسلام) فجوابى عليه : لا ، بالنفى لا بالايجاب ، لان الاسلام رسالة تدعو الى منهاج واخلاق نظرية وعملية تقيم الحياة على افضل طريق للانسانية ، بقطع النظر عن لغة دستورها (القرآن) وعروبتها . ولكن عربية القرآن جعلت اهل اللسان ، اى العرب انفسهم ، يتذوقون فيه مذاقا من البلاغة الرفيعة لا يتذوقه سواهم .

فالاسلام دين صالح للانتشار على مقياس ونطاق عالميين بسبب الطريق القويم الحكيم الذى شقه للبشر فى الحياة ، وبسبب الاسس والمبادىء والقواعد الحكيمة المعقولة التى تتلاقى مع الفطرة البشرية السليمة ، وتؤلف نظاما وسطا معتدلا بين طرفى الانحرافات الشاذة فى الفكر او فى العمل . ولذا كان من اهم ما يلحظه راصدوه من اعدائه المستعمرين والمبشرين اليوم بالديانات الاخرى انه ينتشر مع التجار المسلمين ، ولو من غير العرب ، (كجماعة التبليغ فى الهند ، ومعظمهم تجار يلتزمون بتبليغ الاسلام) فى كل قطر يدخلونه ، ولو بقى الداخلون فيه على لغتهم .

فليست العربية وكونها لغة القرآن سببا لانتشار الاسلام ، بل الصحيح هو العكس : اى ان انتشار الاسلام هو السبب الاعظم لانتشار العربية .
فقد قال الله تعالى فى القرآن العظيم :

« يايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم »

فمن الواضح ان هذا الاحياء الذى فى الاسلام ليس منوطا بلغة نصوصه ، بل بمحتواه من نظام واسس ومناهج حياة .

ان كل ما اوضحته فى جواب هذا السؤال الايضاحى الاول ينطبق على واقع بيئتى الاقليمية ، وهى سورية فى تاريخها المعروف مما لا حاجة الى الاطالة فى ذكره .

2) نعم من الملحوظ ان **الوعي الاسلامى والوازع الدينى فى البلاد الاسلامية ، عربية وغيرها ، يقويان ويضعفان بقوة اللغة العربية وضعفها** ، اعرف هذا فى تاريخ بيئتى السورية ، وفى سائر البلاد الاسلامية ذلك لان انتشار الاسلام وتأثيره فى النفوس وان لم يتوقف على العربية ، لا شك ان انتشارها وازدهارها معه يزيده تأثيرا ويجعل الشعوب احسن فهما له واتصالا مباشرا بنصوصه وتذوقا لها وتأثرا . فمن المشاهد دائما فى عصرنا اليوم ان صيرورة الناس ذوى ذوق رفيع فى العربية وادبها وبليغ كلامها يزيد من تأثرهم بالقرآن وما فيه من روائع العظات ، وبالسنة وما فيها من جوامع الكلم . بل ان كثيرا من المسيحيين من ادباء العربية وكتابها البلغاء يتأثرون بسماع القرآن فى الاذاعات تأثرا كبيرا ومنهم من يستظهر كثيرا من آياته حفظا وتجرى على لسانه فى كثير من المناسبات .

فهذه البلاغة العربية الاخاذة تضيف تأثيرا اضافيا لمضمون الاسلام ومحتواه .

على ان هذا الارتباط بين قوة العربية والوعي الاسلامى هو اشد واقوى بين اهل اللسان فى البلاد العربية نفسها ، ذلك لان هؤلاء طريق صلتهم بالاسلام هى اللغة العربية ، لانها لغتهم ، فمتى ضعفت اللغة ضعفت هذه الصلة . اما غير العرب فصلتهم بالاسلام عن طريق لغتهم القومية ، فلا يتأثر الوعي الاسلامى فيهم بضعف العربية كما يتأثر هذا الوعي بضعفها بين العرب انفسهم . (ومثال ذلك تركيا اليوم ، حيث تبين ان **الوعي الاسلامى فى الشعب التركى المسلم هو فى صعود رغم ما لقيت العربية فى بلادهم من محاربة** فى العهد الاتاتوركى المعروف) .

لكن انتشار العربية فى شعب غير عربى لا شك انه يعطى هذا الشعب تذوقا جديدا اضافيا يزيد فى نفوس ابنائه الحس الاسلامى ، لانه يصلهم بمنابع الاسلام مباشرة .

3) ان اللهجات العامية المنحرفة عن الفصحى فى كل لغة (ومنها العربية) تهذبها الثقافة ورقي المستوى العلمى فى البلاد ، ويقربها ذلك من الفصحى التى هى لغة العلم والكتابة ، ويعدل كثيرا من انحراف اللهجات العامية ، ويستبعد فى المحادثات العادية كثيرا من الالفاظ العامية التى تمجها اسماع المثقفين ، وليس لها نسب فى اصل اللغة ويغنى عنها غيرها من الفصيح الإصيل . حتى ان من المشهود انه برقي الثقافة العامة وانتشارها يضعف الفارق الكبير فى اللهجات والالفاظ العامية بين بلد وآخر فى القوم الواحد ، وتتهذب لغة المحادثة وتتقرب من الفصحى بكثرة ما يدخل فيها بين المثقفين فى احاديثهم العادية من اللفظ الفصيح . هذا امر ملحوظ بل ملموس ، ونشاهده فى بيئتنا وغيرها .

وبناء على هذه الملاحظة يبدو بديهيا ان **انتشار لغة القرآن فى الاقاليم الاسلامية غير العربية** او الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية او الاسيوية يؤثر حتما فى لغاتها القومية ، بما يحمل القرآن اليهم من معان جديدة لا يعبر عنها تعبيرا دقيقا الا باسمائها العربية ، مثل (صلاة ، صوم ، حج ، زكاة) الخ ... ومن مفاهيم اسلامية اوجدتها الشريعة والثقافة الاسلامية ، مثل (فقه ، حلال ، حرام ، واجب ، سنة ، حديث ، طهارة ، نجاسة) الخ ... وهذا التأثير يقع من حيث ان **الفكر الاسلامى ولغة القرآن هما عنصر ثقافى ولغوى جديد تطعم به اللغة الاقليمية .**

هذا بالنسبة الى اللغات الاقليمية فى البلاد الاسلامية غير العربية او جالياتها فى بلاد الغرب .

اما بالنسبة الى اختلاف اللهجات فى البلدان او الاقاليم المختلفة لابناء لغة واحدة قومية ، فان هذا التأثير يضعف جدا فيما ارى ، لان الفكر الاسلامى عن طريق لغة القرآن انما ينصب تأثيره على اصل اللغة القومية بما يوجد فيها من الفاظ وتعابير واسماء عربية لمعان ومفاهيم اسلامية، كما اوضحته آنفا، اما اختلاف اللهجات فلا شان للفكر الاسلامى فى ازالته ولكن قد يخففه فقط ، فان **لغة القرآن لم تمح فوارق اللهجات بين ابناء البلاد العربية نفسها**، بل بقي اختلاف اللهجات العربية قائما بين مصر وسورية والعراق وتونس ، والمغرب الخ ...

4) انني شخصيا في كلامي العادي وحديثي باللهجة العامية احرص على ان انتقي افضل اللهجات الموجودة في المدن السورية ، واقربها الى اللهجة الفصحى ، وان اجتنب ما ينبو عنه ذوقي ، او اللهجة الفصحى من اللهجات والالفاظ العامية في بلدي . لذلك اشعر ان اللهجة الاقليمية العامية في بلدي (مدينة حلب من سورية) لا يوجد منها في تعابيري العربية المحلية (اي كلامي العادي العامي بغير الفصحى) سوى خمسين في المائة او اقل. والخمسون الاخرى تقرب كثيرا فيها لهجتي العامية من الفصحى.

والحظ ان تأثير اللهجة الاقليمية عند سواي اكثر .

5) يجب ان تحتل العربية في بلادي مكانة الصدارة . واقصد بذلك انه لا يجوز ان يكون هناك احد في بلادي لا يعرف العربية ، وانما يعرف بدلا منها لغة اجنبية .

فالواجب ان تكون اللغة العربية وهي لغة الام في بلادي هي اللغة الاساسية ، وكل لغة اخرى اجنبية تكون لغة مساعدة بحسب حاجة الثقافة العامة والاخصاء العلمي ، والاطلاع على المصادر الاجنبية للمعرفة .